البناء

السنة السادسة / السبت / 4 نيسان 2015 / العدد 1750
Sixth year / Saturday / 4 April 2015 / Issue No. 1750

كلفة الحرب على اليمن

■ حميدي العبدالله

الحرب على اليمن، ولا سيما إذا تطوّرت واتسع نطاقها، وتحوّلت من قصف جوي إلى حرب برية، وقصف متبادل، يستهدف المنشآت، ستترتب عليها كلفة اقتصادية أعلى بكثير من كلّ الحروب التي شهدتها المنطقة. فإذا كانت حرب احتلال العراق وأفغانستان قد كلفت الولايات المتحدة وحدها حتى نهاية عام 2007 حسب كتاب حافل بالوثائق أعدّه رئيس الفريق الاقتصادي في عهد كلينتون «جوزيف ستيغليتز» ونائب وزير الخزانة الأميركية في التسعينيات، (3.5) تريليون دولار، فإنّ حرب اليمن ستكون كلفتها، إذا لم تتوقف سريعاً، أعلى بكثير، فالكلفة الأساسية لحربي أفغانستان والعراق لم تكن على غزو هذين البلدين وإسقاط النظام فيهما، فكلفة إسقاط الحكومتين لم تتجاوز في أسوأ السيناريوهات (200) مليار دولار أميركي، ولكن الكلفة الأعلى التي بلغت (3.5) تريليون دولار خلال أربع سنوات من حرب العراق، وخمس سنوات من حرب أفغانستان، كانت بسبب المقاومة التي نهضت في هاتين الدولتين ضدّ الدول الغازية.

ومن المعروف أنّ قدرات المقاومة في هذين البلدين عند انطلاقها، كانت أقرب إلى الصفر، لأنّ الاحتلال عندما غزا البلدين صادر الأسلحة وفرض سيطرته في كلّ أنحاء البلدين.

واضطرت المقاومة للجوء إلى الوسائل البدائية، فغالبية العبوات الناسفة كانت من صنع محلي، وهي التي كبّدت الغزاة خسائر فادحة بشرية وفرضت عليهم تحريك قوات كبيرة بما تسبّب بخسائر مالية أكبر بكثير مما كان متوقعاً.

وفي هذين البلدين كانت المقاومة معزولة وتمثل أقلية، فكلّ دول العالم دعمت غزو أفغانستان لأنّ هذا الغزو جاء رداً على هجمات 11 أيلول في الولايات المتحدة، وكلّ دول المنطقة، بما في ذلك باكستان، دعمت الجيوش الغربية، ومع ذلك تمكنت طالبان من استنزاف جيوش «الناتو» والتسبّب بالخسائر الاقتصادية التي تجاوزت حتى عام 2007 أكثر من 3.5 تريليون دولار.

وفي العراق أيّدت غالبية أطياف العراق الاحتلال، وشاركت في العملية السياسية، ما عدا قلة محدودة من العراقيين نهضت بمفردها بعبء المقاومة وبإمكانيات محدودة، وحتى إيران دعمت العملية السياسية في العراق التي قادتها قوات الاحتلال، ومع ذلك تسبّبت المقاومة التي كانت تحظى بدعم الأقلية بهذه الكلفة الباهظة.

الوضع اليوم في اليمن أكثر أهمية، فالحوثيون والشعب اليمني والجيش اليمني هبّوا جميعاً للدفاع عن اليمن وفي حوزتهم قدرات عسكرية لم تتوفر للمقاومة في العراق وفي أفغانستان، ويحوزون على تأييد إقليمي (على الأقلّ من إيران) لم تحظ به المقاومة العراقية والأفغانية، وبالتالي ستكون قدرتهم على إلحاق الخسائر بالقوات الغازية أكبر بكثير من فعالية المقاومتين العراقية والأفغانية، وإذا ما اتسع نطاق الحرب إلى حرب برية وتقاصف متبادل سيكون هناك أضرار اقتصادية تلحق بالدول المشاركة في العدوان لم يكن بمقدور المقاومتين العراقية والأفغانية إلحاقها بالمعتدين والمحتلين.

فهل تملك دول الخليج فائضاً مالياً يمكنها من تمويل حرب كلفتها تحسب بالتريليونات وليس بالمليارات؟

«دولة ولاية الفقيه نووية» وما قبلها ليس كما بعدها

■ روزانا رمّال

يستقبل الإيرانيون محمد جواد ظريف العائد من لوزان السويسرية استقبال المنتصر وفي جعبته انتزاع رسمي لحقِ بلاده بإنتاج الطاقة النووية وضمّها الى نادي الدول الكبرى.

يعرف الايرانيون جيداً أنّ المهمة لم تكن سهلة، وأنّ طريقهم أصعب مما توقعوا، وأنّ السوء لم يلقه فقط «الإسرائيليون» الذين اعتبروا انّ هذا الاتفاق أسوأ مما تخيّلوا.

حوربت إيران وهوجمت بأكثر من طريقة وأسلوب، كلّ الأساليب كانت شاقة ومكلفة ومرهقة من دون محاولات بث انتصارات تأتي على طبق من فضة بتسويات، ومن دون تضحيات، فالهجمة الأميركية - «الإسرائيلية» على إيران بدأت منذ عشر سنوات وتوزّعت بين استهداف حلفائها في الشرق الأوسط تزامناً مع عقوبات، وصولاً الى ما هو أخطر ومباشر من حيث التعلّق بالبرنامج النووي الإيراني، والذي يعتبر رسالة موجهة، وهو اغتيال كبار علماء الطاقة والكيمياء في إيران، في موجة اجتاحت البلاد منذ سنوات من أجل إحباط عزيمة العلماء الإيرانيين وحتى الطلاب الذين يسيرون بالبلاد نحو التقدّم العلمي والتقني الذي شكل أهمّ أسباب تتويج إيران دولة علم وعلماء قبل أيّ شيء.

طريق المفاوضات كانت شاقة ومضنية وسط الأحداث التي عصفت بالشرق الأوسط، والتي يتهم فريق كبير إيران بالضلوع فيها، أو لعب دور سلبي على أقلّ تقدير فيها مثل دورها في العراق وسورية بحسب تعبيرهم.

بالنظر الى المعطيات الجديدة او بالتنازلات والمعادلات فإنّ السؤال ما الذي تغيّر اليوم حتى يسلك الاتفاق الإيراني مع الغرب طريقه، هل هي إيران أم هو الغرب؟

في الحقيقة الذي تغيّر ليس إيران بتاتاً، فهي لم تتنازل عن حقها النووي باعتراف «إسرائيلي» بأنها قادرة اليوم ان تمتلك سلاحاً نووياً بكل وضوح، وإيران هذه نفسها لم تتغيّر تجاه سياساتها التي لطالما اتخذت من تصريحات الرئيس الإيراني السابق محمود أحمدي نجاد، أيّ قبل العهد الحالي، أنه كان يكثر من خطاباته النارية والحادّة تجاه «إسرائيل» وإزالتها عن الخريطة، بدليل أنّ الاتفاق اليوم نجح على وقع نفس الحديث ونفس اللغة في عهد الرئيس حسن روحاني، وعلى بعد يومين من لوزان التأكيد أنه بالنسبة إلى إيران فإنّ موضوع القضاء على «إسرائيل» ليس للبحث، أيّ أنه مسلّمات.

لا يهمّ الاميركيين كثيراً مَن الذي تغيّر، فلطالما كانت واشنطن تبدّل مواقفها وتتعاطى بازدواجية في كثير من الأمور المصيرية التي تخوض غمار البحث فيها، ولم يكن دعم مصر «مرسي» أو مصر «السيسي» سوى دليل قريب وملموس... لا يهمّ بالنسبة للأميركي اذاً من الذي تغيّر، المهمّ أنّ «الإسرائيلي» يعرف اليوم انّ أميركا هي من تغيّر، وأنّ في واشنطن مزاجاً آخر لا ينظر كثيراً في مصالح «إسرائيل» مهما حاول نتنياهو الادّعاء انّ العلاقة بينه وبين واشنطن متينة كالصخر.

تعرف «إسرائيل» جيداً أنّ إيران لم تتغيّر، كذلك السعودية توقن هذا الأمر، وبالتالي فإنّ نتيجة ما جرى يؤكد أمرين أساسيّين بالنسبة إلى كليهما.

الأول أنّ الخطوط الحمراء التي رسمتها «إسرائيل» وفرضتها على الغرب منذ نشوئها سقطت اليوم، وأنّ الحديث مع من يقاتل «إسرائيل» ويحاربها من إيران أو غير إيران، بات ممكناً جداً وبمعنى آخر لا مانع مثلاً من أن تستيقظ «إسرائيل» وترى اجتماعاً لسفير اميركي مع مسؤولي حزب الله طالما أنّ أميركا خاضت غمار التفاوض مع إيران.

ثانياً انّ السعودية لم تعد وحدها سيدة الخليج، او تلك الدولة التي تؤخذ مصالحها بعين الاعتبار ويتمّ مشاركتها وحدها في تسويات المنطقة وتقسيم النفوذ والمصالح، وأنها رسالة صريحة بضعف النفوذ السعودي بعين الاميركي.

«إسرائيل» والسعودية أدركتا ان عملية تحجيم نفوذهما بدأت اليوم بعد خضوع أميركي لقدرة أثبتتها إيران في الصمود والسيطرة على كيانها رغم العقوبات وشتى انواع الاستهدافات.

وفي المحصلة ها هي ولاية الفقيه نووية باعتراف دولي تخطى مسألة دعمها لحركات المقاومة التي تهدّد أمن «إسرائيل»، وليس على باقي الدول المجاورة سوى تقبّل هذا الأمر والتعايش معه والتحضير لما بعده فما قبل لوزان ليس كما بعده على الإطلاق.

نصر ونصّ... و«النصرة» بتخوف بالنص

– الاتفاق النووي الايراني ليس ملفا تقنياً بل هو إقرار بإيران دولة عظمى لا حلّ معها بالحرب، ولا قدرة على إجبارها على تغيير خياراتها، والتفاوض سبيل حلّ الخلافات معها.

– قال نتنياهو وصدق انه ليس مهماً أن يعدنا الأميركي والأوروبي بأن إيران لن تملك قنبلة، المهمّ أنهم يشرّعونها دولة ذات مكانة محترمة وقادرة، وهي تعلن نيتها تدمير «إسرائيل»، ويضيف: هذه سابقة لم تحدث من قبل، وهي نذير شؤم بإفلاس الغرب وقرب نهاية «إسرائيل»، فلم نعد خطاً أحمر.

– نصر ونصّ.

– البعض يخفف من قيمة النصر بسبب تقدم «النصرة» في سورية.

– «النصرة» مصدر خوف هي و«داعش» عندما يتمدّدان «بالنص» على حدود سورية مع لبنان وفلسطين والعراق، ويتصلان من القلمون إلى القنيطرة من جهة والأنبار والحسكة مقابلها كطوق حول سورية حيث يقطع تواصل حلف المقاومة بسورية واتصالها بفلسطين.

– «النصرة» و«داعش» على الحدود مع تركيا والأردن للتفاوض، وغداً تركيا تتغيّر لتماشي إيران وتتأقلم مع التطوّرات، والاردن وصلته الرسالة فبدأت تصريحات التواصل وبدأ يستدير.

– من اليمن التغيير وفي سورية النصرالكبير.

التعليق السياسي

انتصار سورية وحلفائها إرساءٌ لأممية إنسانية واعدة

■ كمال طهبوب*

بعد أربع سنوات من الحرب على سورية، يجب أن نؤكد (غير مبالين بعامل التكرار) بأنّ العدوان الكوني على سورية يشكل سابقة أولى وخطيرة على السلام العالمي بل وعلى الوجدان الإنساني من حيث عدد الدول التي تآمرت على دولة واحدة لا يوجد بينها وبين هذه الدول أية خلافات حقيقيّة باستثناء العامل الوحيد وهو الصراع العربي الصهيوني... ومن حيث انحطاط وبشاعة ووحشية هذه الحرب وعلى كلّ الساحات السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية والإعلامية.

ولقد كان العدوان مكشوفاً من حيث نواياه الخبيثة الصهيونية والاستعمارية رغم ادّعاءاته الباطلة بدعم (ثورة شعب ضد نظام مستبد!) مستنداً إلى حركة ما يُسمّى الربيع العربي التي لعبت دوراً في إسقاط منظومات سياسية وحكومية عربية ضمن إطار لعبة الدومينو للوصول إلى سورية بعد أن فشلت كلّ المحاولات السابقة للنيل منها عبر مؤامرات «كامب ديفيد» واحتلال العراق واغتيال الحريري والعدوان «الإسرائيلي» على لبنان وعلى غزة (2006–2008/2009) ورغم الشرخ المذهبي الذي أنتجته الحرب العبثية العراقية مع إيران والشرخ العربي الذي أحدثه احتلال العراق للكويت سابقاً.

وحتى لا نطيل الحديث عن الأسباب والموجبات لهذا العدوان والنتائج التي ستكون حاسمة ومصيرية على مستوى الدول والمجتمعات، يجب علينا أن نؤكد مبدئياً على بعض الأمور التي أصبحت في رأينا يقينية وحتمية...

- إنّ الحرب العدوانية على سورية هي بداية الحرب وقاعدة نهايتها في الصراع العالمي المستجد بين القوى الاستعمارية الغربية/الصهيونية الهابطة (استراتيجيا) وبين القوى الصاعدة روسيا والصين وحلف الممانعة السوري/الإيراني من جهة أخرى. وهي (أيّ هذه الحرب) تتشابك في عمقها مع الصراع الوجودي بين الصهيونية وقاعدتها «إسرائيل» وبين محور التحرّر العربي عموماً. ويمثله بشكل رائد محور المقاومة بقيادة سورية وهذه الحرب (الصراع العربي/الصهيوني) تؤثر بشكل واضح على طبيعة الصراع العالمي، وهذا ما يؤكد أهمية مثلث النفوذ العربي الذي يمتدّ من وادي النيل إلى بلاد ما بين النهرين وقلبه بلاد الشام.

- لقد كانت كلمة السيد حسن نصر الله قائد المقاومة التي تعتبر حلقة أساسية في محور المقاومة العربي وأحد الأركان كذلك في حلف الممانعة الإقليمي، ذات أبعاد جوهرية مفصلية عندما أعلن عقب انتصار المقاومة في آب (2006) أنّ زمن «إسرائيل» كذراع صهيونيٍّ رادع قد انتهى استراتيجياً. ولكن هذه الحقيقة هي التي حرّضت العدوان الكوني على سورية باستنفار صهيوني/ استعماري/ أدواتي. خاصة أن الصهيونيةّ التي اعتلت مركب الهيمنة الأميركية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي بدأت تستشعر خطر الهبوط وهو وجوديٌّ بالنسبة إليها. ولهذا فإننا لا نستغرب هذا الحشد العدواني الذي استنفر كلّ قوى العدوان من الاستعمار الغربي المتحالف مع الصهيونية إلى الأدوات التي لها أحلام توسعية عقائدية (تركيا العثمانية) إلى دول الخليج بأنظمتها الصهيونية المستترة، إلى أنظمة دول التسوية الاستسلامية المتخاذلة إلى كل منظمات الإرهاب التكفيري (قاعدة، داعش، إخوان مسلمون) حتى المنظمات الدولية الساقطة في فخ الهيمنة الأميركي/ الصهيوني من الأمم المتحدة إلى منظمة التعاون الإسلامي إلى جامعة الدول العربية.

- لقد حققت الحرب العدوانية على سورية في إحدى تداعياتها الآنية والاستراتيجية إنجازاً كبيراً كان لا بدّ منه في نهاية المطاف بعد عدة عقود من البوهيمية الإعلامية والثقافية التي عمّت العالم، وخاصة في بيئتنا العربية، لتكون أرضية خصبة لانطلاق كلّ النظريات المشبوهة (غربياً ليبرالياً) أو (دينياً تكفيرياً) في إطار زواج السِّفاح، حيث لا يمكن لهذه الأفكار الهدامة أن تتسلل إلى العقول والوجدان إلا من خلال خلط الأوراق وبعثرة المبادئ والثوابت والأصول الأخلاقية، والتي بانهيارها تنهار بالتالي حصانة الشعوب والمجتمعات.

إنّ الفرز الذي تحقق بصمود سورية خلال الأعوام المنصرمة في مواجهتها للعدوان قد ميّز الوطني السوري من المتآمرين والمتواطئين أيّاً كانت نسبتهم، ومن المتخاذلين والانتهازيين أيّاً كانت نسبتهم، ومن الجاهلين والمتجاهلين أيّاً كانت نسبتهم.

الفرز أصبح واضحاً

وعلى الصعيد العربي كان الفرز واضحاً أيضاً رغم كلّ التشويه الإعلامي بين أدوات الغرب الصهيوني / أنظمة ونخب / وبين القوى القومية التحرّرية والمقاومة، ورغم أنّ الإمكانات لدى الأولى هي أكبر وأكثر نتيجة الدعم المعادي إلا أنّ التشويه البراغماتي بدأ بالانكماش لمصلحة وضوح الرؤية، حيث بدأت القوى الوطنية والقومية بالانتفاض رويداً رويداً، وهي تشكل وإنْ ببطئ الحالة الوجدانية العربية الجمعية من جديد. وعلى الصعيد الدولي أخذت النزعة الاستقلالية للدول منحاها وهي تسعى إلى التأكيد على حق الشعوب في سيادة أوطانها وحقها في تقرير مصائرها دون تدخل خارجيٍّ مهيمن وردع القوى الاستعمارية وكبح الجموح العنصري وخاصة الصهيوني، وقد تسلل إلى كثير من المفاصل الدّوَلية والدّوْلية. ولقد أصبحت هذه القوى السيادية التحرّرية في مرحلة متقدّمة من لملمة الصفوف وتوحيد القوى. ونحن نظن بأنّ ساعة الانطلاق لهذه العملية المركّبة على المستوى الاستراتيجي زمنياً وعملياتياً لن تعلن إشارتها إلا بإعلان انتصار سورية على العدوان الإرهابي حيث ستنجلي حينها الحقائق (خلفيات العدوان وأبعاده) من جهة وسينعكس السحر على الساحر (العدواني العنصري الإرهابي) وعلى مصادره المختلفة من جهة أخرى.

ولهذا نحن نرى الآن هذا الجموح من حيث تضافر كلّ القوى المعادية لاستمرار العدوان على سورية. فهذه القوى وإنْ أدركت أنّ هزيمتها آتية لا بدّ إلا أنها تسعى إلى تأخير تجرّعها كأس الهزيمة المرة، أو تفاديه إنْ أمكن، وإنْ اضطرها ذلك إلى التضحية بالحلفاء والكلّ أخلاقياً يسعى إلى ذلك حيث الأخلاق لديهم مرتبطة بمصالحهم العدوانية العنصرية.

- إنّ الهجمة الشرسة إعلامياً وثقافياً التي شنّها الغرب الصهيوني على العالم وخاصة الوطن العربي، وبالأخصّ سورية، بحيث فُرّغت المفاهيم من مضامينها فأصبحت الحرية (حرية الإنسان والشعوب) مجرّد ديمقراطية على الطريقة الغربية، وأصبحت المقاومة الشعبية للاحتلال إرهاباً، وأصبح الاستسلام سلاماً، والتبعية حكمة إنسانية إلخ...

إلا أنّ القارئ المخلص للأحداث يمكن أن يستنتج وبسهولة بأنّ الهجمة الإعلامية المعادية كانت موجهة ضدّ سورية وحلفها المقاوم منذ عقود، وتحديداً منذ سقوط مصر في مستنقع «كامب ديفيد». ولهذا كانت محاولات الاختراق الثقافي والسياسي المعادية للبيئة الوطنية السورية شرساً في حلقاتها الضعيفة (البيئة الفقيرة الجاهلة، البيئة المحافظة دينياً، بؤر الفاسدين والمتورّطين جنائياً، بؤر الكيديين السياسيين، ومعهم للأسف أولئك الذين نحتسبهم نخباً ثقافية أو فكرية إلـخ...) وقد انطلت عليهم أو تلاقت مع مصالحهم الشخصية الأنانية تلك العلاقة غير الشرعية بين التكفيرية الدينية والليبرالية الديمقراطية الاستعمارية الغربية. هذا التسلل المشبوه والمدعوم مالياً هو في نهاية الأمر المسؤول عن تشكيل ما نسمّيه البيئات الحاضنة أيّ البيئة المنسلخة عن الوعي الجمعي الوطني القومي العربي التحرّري المقاوم.

وللتأكيد على النوايا الخبيثة للعدوان منذ الشرارة الأولى لما يُسمّى (الثورة السورية!) نستذكر سقوط بعض الضحايا في ظروف غامضة في درعا حينها حيث تمّ توجيه الاتهام فوراً لبعض أجهزة الدولة مع قناعتنا الكاملة بالدور المشبوه والخبيث للاستخبارات الصهيونية الإسرائيلية والأردنية (وهنالك أقسام في المخابرات الأردنية لا تعدو كونها أقساماً صهيونية غربية استعمارية أفرادها ناطقون باللغة العربية ويحملون الجنسية العربية للأسف) وهو الدور الذي عمل ونشط قبل وبعد العدوان على سورية على كلِ حال.

ولو صدّقنا طروحاتهم كما هي فيحقّ لنا أن نسأل وكما نعرف وكما تعوّدنا فإنّ العادات العشائرية والتي ما زالت سائدة هناك كانت تقتضي في حدوث حالات مماثلة اجتماعياً تسارع أصحاب النوايا الطيبة لامتصاص ردود فعل مصحوبة بجهود الوجهاء هناك (وجهاء عشائر، أحياء، قرى إلخ...) لجمع أطراف النزاع حيث لا ينتهي الأمر (بمرافقة ولائم اللحوم والقهوة المرّة) إلا بالحل السلمي المستند على معاقبة الجاني وتعويض المظلوم والتأكيد على المصالحة والتي قد ترافقها أعراس لشبانٍ وشابات الطرفين لتمتين صلة الرحم.

وإذا كان الوجيه الأول (رئيس الجمهورية) قد سارع شخصياً إلى توصيف الإشكال في خطاب وطني إلى أبناء الوطن جميعاً ووعد بمحاسبة المسؤولين عن الأحداث (واتخذ الإجراءات اللازمة على أرض الواقع) ومنح المجني عليهم شرف الشهادة (بما تعنيه هذه المرتبة من مكانة قيَميّة في سورية الأسد معنوياً ومادياً) فلماذا لم يستجب أهل الربط وأهل المصلحة هناك لهذه المبادرة الوطنية الطيبة، بل هم تمادوا في غيِّهم في تحديد مواعيد للحساب إنْ لم يُستَجب إلى مطالبهم، وكانت سياسية مجحفة بحق الوطن مما أدّى إلى دفع محافظتهم وكلّ أرجاء الوطن لدفع الثمن الباهظ ومكّن من تسلل أعداء الوطن إلى حضن الجميع؟ ولماذا تنادى في بانياس وحمص وأماكن أخرى مسلحون ظهروا على وجه الأرض فوراً للانتقام (للضحايا!!) وشرعوا بالقتل على الهوية والاعتداء على الجيش العربي السوري (مدرسة الشرف العربي) وتخريب مؤسسات الوطن التي تمثل حصانة الجميع؟

وهنا لا بدّ أن نعترف بأنّ الهجمة الإعلامية/ السياسية التخريبية التي تعرّضت لها سورية خلال العقود الماضية لم تمسّ مبادئ وثوابت البعض من أبناء الوطن، بل اخترقت وجدانهم والحدّ الأدنى من أخلاقهم وشرفهم كذلك، وهم وإنْ كانوا قلّة من حيث النسبة، إلا أنّ تأثيرهم على ساحة الوطن كان قطعياً.

المهم أنه من هذه المقدمة لا بدّ أن نؤكد على أنّ الرئيس بشار الأسد (وهذا الكلام للتوصيف وليس للتقييم أبداً فأمثال الرئيس الذين تستولد الزعامة من قيمهم وأدائهم وليس العكس هم فوق أيّ اعتبار) استطاع وهو يواجه بحكمة وشجاعة أرذل وأبشع عدوان تعرّضت له دولة عبر التاريخ أن يرسّخ قاعدة صلبة لإنجازات عديدة حققها صمود سورية، وفي طليعتها الفرز الحقيقي للقوى، مما يعيد الاصطفاف التاريخي بين قوى الخير في مواجهة قوى الشرّ، وقوى الحق في مواجهة قوى الباطل إلى وضعه الطبيعي والحقيقي.

أنموذج العلاقة السورية - الإيرانية

وإذا أخذنا مثالاً أنموذجاً كان وما زال يمثل لَبنَةً هامةً من مرتكزات انتصار سورية في مواجهة العدوان عليها، ولا بدّ أن يكون بعد انتصارها حلقة تعضد المواجهة المستمرة مع أعداء الإنسانية تحالف الاستعمار الغربي/ الصهيوني العنصري وأدواتهما المختلفة كأنظمة وأحزاب وقوى.

ولكن وقبل الدخول في تفاصيل هذا الأنموذج ونقصد به العلاقة السورية - الإيرانية. نريد أن نوضح كم أنّ الصراع في المنطقة وفي العالم أصبح مركباً مما سهّل دور التشويه الإعلامي المعادي في استباحة الفكر الإنساني من خلال خلط الأوراق والتركيز على عناوين دون الأخرى إلخ... ومما أدّى أيضاً إلى تراكم الصعاب في مهامنا الفكرية والثقافية والإعلامية مع الاعتراف بتقصيرنا بأسبابه الذاتية والموضوعية.

فالصراع في منطقتنا العربية، أيّ الصراع العربي/ الصهيوني ونرفض عبارة الصراع في الشرق الأوسط... فالشرق الأوسط الذي يمكن أن نعترف به كمنطقة جغرافية لا بدّ أن يكون خالياً من الكيان الصهيوني ومن الهيمنة الاستعمارية ويلغي حالة التجزئة لسورية (بلاد الشام) خصوصاً وللأمة العربية عموماً.

المهم أنّ الصراع الدائر الآن هو الآخر مركب. وتتجلى الحقيقة فيه ساطعة في العدوان الكوني على سورية. حيث تحالف الاستعمار الغربي الصهيوني العثماني التركي الوهابي الخليجي الإخواني التكفيري ضدّ سورية فقط.

فالصراع مع هذه الجهة المعادية هو سوري (بلاد الشام) وسورية الحالية قاعدة ارتكازه. وعربي أيضاً وسورية قاعدة ارتكاز صموده. وإقليمي كذلك وسورية قاعدة ارتكاز صموده. وعالمي في نهاية المطاف وسورية قاعدة ارتكاز صموده.

فسورية هي عاصمة المحور المقاوم.

وسورية هي قلب العروبة النابض.

وسورية هي مرتكز المحور الإقليمي الممانع.

وسورية هي قلب الحدث العالمي الذي واجه من خلال صموده كلّ الدول العظمى وتحالفاتها الساعية إلى مواجهة الهيمنة الاستعمارية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية.

الحقائق كما هي...

وفي الحقيقة إذا كنا نُكْبر تواضع سورية الدائم، ولهذا أسبابه الأخلاقية وقيمه النبيلة، وإذا كنا ندرك حكمة القيادة السورية التي تهتمّ بالعمل وتركز على مفاعيله دون التورّط في مهرجانات الاستعراض والإبهار، إلا أننا نعتب على أنفسنا جميعاً وخاصة إعلامياً في إشهار الحقائق كما هي، فالمواطن العربي السوري يستحق أن يعرف كلّ الحقائق كما هي وأن يعتزّ بدورِ وطنه على كافة الساحات دون مجاملة لأحد فهذا حقّ له كما هو واجبٌ عليه.

فرغم أنّ مركز الحدث هو سورية، ورغم أنّ صمود سورية عزّز بشكلٍ كبير بل وحاسم أدوار حلفائها إلا أنّ التحليل السياسيَّ المعادي (مقصود) والصديق (غير مقصود وأحياناً مشبوه) يركّز الآن على أنّ الصراع هو إيراني/ غربي ونتائجه ستؤثر على المنطقة وخريطتها السياسية. ورغم اعتزازنا الكبير بدور إيران المشرّف والصادق إلا أننا يجب أن نوضح لشعبنا دون مواربة غاية هذه الادّعـاءات، فالدور السوري التحرّري كان سابقاً للثورة الإسلامية الإيرانية، والثمن الباهظ الذي دفعه شعبنا في لبنان دعماً للنضال الفلسطيني (الحرب الأهلية) حصل في عهد الشاه الإيراني حليف الاستعمار والصهيونية والوهابية الخليجية.

إنّ غاية هذه الادّعـاءات هو تحجيم دور سورية، بل واستفزاز السوريين والقوميين العرب وتأكيدٌ لصحة طروحات الإعلام المعادي المشبوه بغاياته الفتنوية وهو ليس لمصلحة إيران كذلك شكلاً ومضموناً.

فهذا التحالف هو تحالف عربي/ إيراني، عربي مقاوم تقوده سورية ممثلة للعرب (في غياب الأنظمة المتورطة والمتخاذلة) مع وأمام التحالف المعادي الاستعماري/ الصهيوني، هو تحالف الأنداد سيادياً المواجه لقوى الطغيان وهيمنة العنصرية الصهيونية أخلاقياً.

ولهذا فإنّ الحرب على سورية هي حربٌ على العروبة سياسياً وثقافياً وإعلامياً وهي حربٌ على وحدة بلاد الشام قلب العروبة وقلب مثلث النفوذ العربي بلاد وادي النيل– بلاد الشام– بلاد ما بين النهرين. وما يجري في العراق الآن خير دليل على ذلك، فغاية التجزئة للمنطقة تعتمد على استهدافٍ الهوية الوطنية/ القومية العربية في آن واحد. ولهذا فإنّ الحرب العدوانية أيضاً على الحلفَ السوري/ الإيراني هي في غايتها استهداف المنطقة وأي تنسيق يتمّ بين أطرافها، ولهذا كان السقوط التركي في حبائل العثمانية/ الإخوانية/ الصهيونية/ الغربية الاستعمارية ضربة موجعة للحلف السوري/ الإيراني، ولكن نتائجها ستكون كارثية على تركيا إنْ لم يسعفها أبناؤها قبل انقشاع غبار المؤامرة وإعلان انتصار سورية وحلفائها.

وكذلك فإنّ الحرب على الحلف السوري/ الإيراني هي حربٌ على أهم قاعدتين من قواعد الحضارة الإنسانية، العربية/ الفارسية، هذا الحلف الذي يستخلص العبر من حوادث التاريخ وينزّه المنطقة من آثار الشعوبية التي حطّمت دولة الإسلام.

وهي حربٌ على بلادِ الشام مهد المسيحية وقاعدة حضارة الإسلام. وكلّ هذه الأهداف هي صهيونية بأحلامها الأساطيرية واستعمارية غربية (حيث لا يقلّ الغرب الأورو/ أميركي في عنصريته عن الصهيونية رغم أنه يتدثر بالمسيحية كما تتدثّر الوهابية بالإسلام) حيث كشف الطرفان عن عوراتهما بشكل فضائحي مذلٍ يؤكد عدائية الطرفين وبشكل قاطع لكل ما هو إنساني.

تحالف استراتيجي وأخلاقي

لقد صمد التحالف السوري - الإيراني أمام كلّ موجات الهجوم المعادية وعلى مدى أربعة عقود (مكتوباً كان أم غير ذلك) لأنّ المصداقية كانت شعاره الأهمّ، ولأنه بُنيَ معنوياً ومنهجياً على أسس أخلاقية حصّنتها أهدافه التحرّرية المقاومة والممانعة التي أصبحت بدورها ذات أبعاد استراتيجية يمكن البناء عليها.

وإذا كنا نتفق (ويجب علينا ذلك) على أنّ الوضع السياسي لأيّ بلد محكوم بعوامل خارجية (تطورات الوضع العالمي وتواليات حراكه المُتَبادل التأثير) وعوامل داخلية وهي الأهمّ (تبادل التأثير العضوي والزمني بين أطياف المجتمع بقوامها السياسي والاقتصادي) وعوامل تاريخية لا تقل أهمية (حيث تتداخل عوامل الأصالة بخبراتها المتراكمة مع حتمية التطور) وعوامل ذاتية ونفسية (حيث يشكل المزاج الشعبي من خلال التفاعل مع كلّ العوامل السابقة طبيعة وهيكلية حصانة السيادة والاستقلال مستنداً بذلك إلى مفاهيمه المتوارثة ومعتمداً على إمكاناته الذاتية لتحديد منظوماته السياسية التي تقود حراكه وتعبّر عن آماله ويثق بقدرتها على تحقيق مصالحه).

إنّ ما يميّز سورية الحالية وسورية الحقيقية (بلاد الشام) هو أصالة الفسيفساء الاجتماعي ثقافياً وعقائدياً عبر تواليات الزمن والذي انعكس على البناء الوطني بتآلف مركّب ومعقد شديد التماسك رغم تعدّد مركباته المحتشدة بانتماءات زمنية متباينة ضمن نفس الملاط الجامع. ولهذا فإنّ الحرب المعادية الاستعمارية - الصهيونية كانت وما زالت تعاني في صدامها مع هذا الحصن المتين. إلا أننا يجب أن نعترف أنه في حالة الفتنة (إذا نجحت لا سمح الله) يكون التماسك شديد الانفجار عند التفتيت وهذا هو هدف الحرب الكونية على سورية، وقد فشل الحمد الله.

إنّ تأكيدنا على هذه الخصوصية العربية السورية لا ينفي مثيلاتها عن الشعوب الأخرى أبداً فالإنسانية الجامعة تعترف بأصالة الشعوب الموزعة في البيئات الاجتماعية المكوّنة على الجغرافيات المختلفة بمواصفاتها الخاصة (كلّ في بيئته). إلا الخصوصية العربية السورية كانت متميّزة بأنها منحت الثقافة العالمية فكراً وعقيدة وثقافة الكثير من صبغة فسيفسائها وملاطها مجتمعين وهذا التأثير كان ضارباً في أعماق التاريخ قبل انتشار الديانات السماوية وإنْ كان قد تعزز بها بعد ذلك وبقوة أيضاً.

ولـهـذا ومـن خـلال معرفتنا بأنفسنا نستطيع وبموضوعية التعرّف إلى الآخرين، وأن نتعرّف وهذا هو المهمّ إلى النتيجة الحتمية ومفادها أنه مهما بلغت قوة السيطرة لجهة ما دولة أو امبراطورية إلخ... فلا يمكنها أبداً أن تحطّم أو تسرق عمارة المخزون التاريخي لأيّ شعب وبالتالي هويته ووجوده. والاستثناءات قليلة (وبالطبع لكلّ قاعدة استثناء). وإنّ أيّ هجوم همجي لا يحقق إلا أهدافه الآنية ولكن آثاره ستكون مدمّرة للجميع وسيكون المنتصر خاسراً كغيره عاجلاً أم آجلا. وهذا هو مصير الهجمة الغربية/ الصهيونية على سورية وإنْ كانت المعركة طويلة حتى اندثار الكيان الصهيوني.

ولهذا فإننا نؤكد أنّ التباين الإنساني ثقافياً وحضارياً وعقائدياً ليس سبباً لأحقاد الشعوب التي تستثار من حين إلى آخر بل هي نتيجة سياسات الهيمنة الأنانية التيّ تلتحق بها الأنظمة الحاكمة هنا وهناك لمصالح ذاتية لا أخلاقية تنعكس سلباً على السلام العالمي وعلى شعوب هذه الدول المُهَيمِنة في لحظة تاريخية ما.

شرطان لبناء السلام العالمي

ولهذا فإننا نعتبر أنّ الشرطين اللازمين لبناء السلام العالمي هما:

1 - احترام المجتمعات الإنسانية لتبايناتها فكرياً وثقافياً وروحياً واجتماعياً إلخ... حيث تتداخل العوامل التاريخية الجغرافية البيئية لتشكيل المجتمعات، والتي لا بدّ أن يكون مصيرها مرهوناً بإرادتها فقط والمتناسب مع مصالحها. وإنْ كانت هذه البيئة المعينة (بيئة ما) في حالة قصور فهي الأَوْلى بتصحيح مسارها بالاستفادة من إنجازات الآخرين الذين يجب أن يقتصر دورهم على المساعدة ذات الفائدة المتبادلة ولكن دون وصاية.

2 - العبارة الأخيرة من البند أو العامل الأول هي أساس العامل الثاني حيث يجب قيام علاقات إنسانية تتبادل فيها المجتمعات إمكاناتها وإنجازاتها المتباينة والمتفاوتة لتحقيق الفوائد المتبادلة والمشتركة لتعزيز التطور الإنساني من خلال الإيمان بحقيقتين ثابتتين أنه كما ليس هناك كمالٌ في الأشخاص فحاجة الجميع للجميع فالحقيقة تؤكد أن لا كمال في المجتمعات والحاجة للآخرين ضرورة. كما أنّ الإنجاز أو الإمكانية المتوفرة لأحد الأطراف لا تؤهّله لاستخدامها في بورصة الوصاية والابتزاز على الآخرين وإلا فالنتيجة هي عدوان أيّاً كان شكله ستكون آثاره سلبية على الجميع رغم تباين النتائج الآنية زمنياً.

وإذا كانت الحرية (وليست الليبرالية) في ساحاتها جميعاً سياسية واقتصادية وثقافية وعقائدية إلخ... هي المنصة المشرّعة بمواثيق وقوانين لمنح الأفراد حراكهم الخاص داخل مجتمعاتهم. فإنّ هذه الحرية هي نفسها على مستوى الدول والأوطان المنصة التي تؤمّن علاقات إنسانية سليمة مسالمة بين الشعوب. فتباين الإمكانات والمؤهلات لا تبرّر أيّ تباين للحريات حيث تـزداد هنا وتنقص هناك فالحرية الشخصية معنوية كاملة المواصفات لا يمكن تعديلها أو تجزئتها أو استبدال مكوناتها. هي حالة وصفة وقاعدة حراك وغاية إنسانية وُلِدَت معها ولا تفنى إلَا بها. ولهذا فنحن نعتبر أنّ التحالفَ السوري/ الإيراني في هذا المجال مع إهمالنا للتشويه الإعلامي الفظيع الذي يتعرّض له، وهذا التشويه هو وسامٌ على صفحة هذا التحالف لأنّه آتٍ من أعداء الإنسانية الاستعمار الغربي/ الصهيوني/ الوهابي/ الإخواني/ التكفيري. المهم إنّ هذا التحالف يمكن اعتباره بحق نموذجاً واعداً لإرساء قواعد العلاقات بين الدول والشعوب لتحقيق الأممية الإنسانية بكلّ موضوعية لا انطلاقاً من الطوباوية أو المثالية الأفلاطونية.

ونحن نسأل إذا كانت الأممية الإنسانية التي نطمح إليها مثالية خيالية... فهل سيادة (في المجتمع الواحد أو في العلاقة بين المجتمعات) طبقة دون أخرى واقعية...؟ وهل هيمنة عرق على آخر أو آخرين واقعية...؟ وهل سيطرة دين أو طائفة أو مذهب واقعية...؟ وهل هيمنة أمة على العالم أجمع واقعية...؟

وإذا عدنا إلى قواعد هذا التحالف فيمكن أن نلخّصها بما يلي:

1 - القاعدة الأولى: التأكيد على الحالة السيادية للدولة فكراً وممارسة واعتماد تطوير إمكاناتها من خلال الواقعية وتعزيز صمودها على هذا الأساس وتفعيل علاقاتها الدُوَلية بما يخدم هذا التوجه بالشكل والمضمون ودون مجاملة. وإذا كانت سورية في العقود الماضية سبّاقة على إيران حيث اعتمدت هذا المنهج والأسلوب منذ الحركة التصحيحية بينما اعتمدته إيران بعد الثورة الإسلامية إلا أنّ هذين النموذجين شكّلا في الحقيقة منفردين ومتحالفين خطراً حقيقياً على كل الأنظمة المحيطة خليجية أو تسوويّة وحتى تركيا، لأنها كانت أنظمة تبعية لتحالفات غير متكافئة وهي وإنْ ظهر بعضها أحياناً قوياً ومهيمناً في حدث ما فإنّ ذلك لا يعدو كونه تمادياً مرتكزاً على قوة الدول الكبرى المرتبط بها وبمصالحها مما يحوّل هذا الكيان إلى دولة قوية بالوساطة حيث تدفع في الحقيقة من استقلالها وسيادتها وكرامة شعبها مقابل هذه الهيمنة الآنيّة والوهمية الكثير الكثير.

2 - القاعدة الثانية: هي أنّ هذا التحالف أرسى وبشكلٍ ربما غير مسبوق وخاصة في ديمومته (أي أنه ليسَ تحالفاً آنياً لمواجهة إشكالية عابرة ما) مبدأ عدم تدخل الحليف في شؤونِ الآخر سراً أو جهراً ورغم أنّ النظامين عقائدياً وسياسياً مختلفان، فالنموذج العربي السوري قومي/ علماني، والنموذج الإيراني قومي/ ديني إلا أنّ الفهم الصادق للنظامين لمعنى التحالف السيادي ترك لشعبي البلدين تحديد مسار وبناء دولتيهما، بينما اهتمّ التحالف بالأمر الاستراتيجي الوطني والقومي والإنساني وهو مواجهة كلّ أشكال الاستعمار والعدوان والعنصرية والصهيونية. ولهذا كان هذا التحالف في أدائه السياسي ليس فقط على مستوى البلدين بل وعلى مستوى علاقته مع الدول والشعوب الأخرى يُراهن دوماً على إرادة الشعوب فهي إنْ كانت في حالة الانتفاضة والفعل فهو إلى جانبها، وإنْ كانت في حالة السكون قبل الانفجار فهو إلى جانبها كذلك دون الصدام المباشر مع أي حالة سيادية تخصّها.

3 - القاعدة الثالثة: ربما يكفي لأيّ مراقب الاطلاع على القاعدتين السابقتين حتى يتأكد من نزاهة وصلابة هذا الحلف، إلا أنّ هذه القاعدة الثالثة هي في الحقيقة وإنْ كانت أخلاقياً وقانونياً مجرّد محصّلة طبيعية للقاعدتين السابقتين إلا أنها تؤكد بما لا يدعو للشك أبداً على حصانة هذا الحلف الذي يتبادل الدعم والتأييد في مواجهة كلّ قوى الاستعمار والعنصرية الصهيونية في منطقة هي الأكثر حرارة في العالم لطبيعتها التاريخية والمستقبلية سياسياً واقتصادياً واستراتيجياً. ولهذا وبشكل عام فإنّ تعاضد طرفي الحلف شكّل القاعدة الأساس في هذه المواجهة الشرسة مع أعداء الإنسانية، حيث اختلط في هذا النضال التحرّري لدى الطرفين الهمّ الوطني والقومي والإنساني وأتت الحرب الكونية العدوانية على سورية وهي حربٌ ضدّ الحلف أيضاً وضدّ كلّ قوى التحرّر العالمي كذلك لتؤكّد (في المستقبل القريب والبعيد خاصة عندما تتمّ تعرية الحقائق وتتظهّر النتائج) على مدى صدقية وعلمية الحليفين (والصدق هنا لا بدّ أن يكون علمياً والعكس كذلك فهذه حتمية تلقائية لا تحتاج إلى نقاش) حيث كانا يتنبّآن بقسوة المواجهة بعيداً عن التفاصيل، فالحرب هنا حرب وجود وهذا ما أسّس للقاعدة الرابعة.

4 - القاعدة الرابعة: إنّ اعتماد المصداقية والإخلاص وعدم التورّط في المؤامرات والدسائس الخفيّة الناجمة عن تأثيرات السياسات المعادية التي تتناوب فيها موجات الإكراه مع موجات الترغيب والتي يتلاعب ساستها ومفكروها على حبال المساومة والمجاملة لتحقيق المصالح الاستعمارية العدوانية على حساب الشعوب. كلّ ذلك ساهم في صلابة الحلف السوري/ الإيراني وأكّد على علوّ كعبه سياسياً واستراتيجياً فلقد كانت المنظومة الأخلاقية خير مُحَصِّن لمنظومته السياسية وهي على كلّ حال (أيّ منظومته الأخلاقية) نتيجةٌ طبيعية لأهدافه الواضحة والتي جعلت منه حلفاً مقاوماً لكلّ أشكال العدوان. وهنا لا بدّ من التأكيد على ملاحظتين هامتين:

الملاحظة الأولـى: إنّ الحرب الكونية على سورية وعلى طرفي الحلف دون شك إنما تؤكّد على صوابيّةِ استراتيجية المقاومة للاستعمار والصهيونية وخاصة في مجال الصراع العربي/الصهيوني. وإذا كانت الهجمة الشرسة المعادية سياسياً وأمنياً ومعلوماتياً وإعلامياً والتي حاولت أن تُقدّم هذا الحلف تحت عناوين مذهبية وطائفية فتنوية وكأنه في طرف والشارع العربي في طرف آخر، مستفيدةً من سقوط أغلب الأنظمة العربية في مستنقع التبعية للعدو الغربي الاستعماري الصهيوني إلى درجة الانحطاط، إلا أنّ الصحيح والحقيقي هو أنّ هذا الحلف هو حلف عربي/ إيراني يمثل مصلحة الشعب العربي في تحالفه مع كلّ القوى الثورية المواجهة لأعداء الإنسانية، إنما شاءت الأقدار أن تكون سورية وهذا هو قدرها دوماً هي الممثل العربي الشريف لمصلحة وحقوق الأمة العربية ويتحالف معها — وهذا عينُ الشرف — في هذا الحلف كلّ قوى المقاومة العربية وكل قواها القومية التحرّرية وإنْ كانت هذه القوى مقهورة في أقطارها العربية إلا أنّ المستقبل لها... ولها وحدها فقط.

الملاحظة الثانية: إنّ هذا الحلف السوري/ الإيراني يحقّ له التمايز والافتخار فقد كان الحلف الوحيد السيادي المقاوم للاستعمار والصهيونية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وهيمنة الولايات المتحدة على القرار العالمي وسقوط أغلب الدول وخاصة دول أوروبا الغربية والشرقية في الحضن الأميركي/ الصهيوني، بينما كانت دول قلّة تُهادن ريثما يتسنّى لها نفض الغبار عن كاهلها.

وحده الحلف السوري/ الإيراني ولا ننسى كوريا الشمالية وكوبا وفنزويلا كان يغرّد في سرب الاستقلال والسيادة حتى بات ومن خلال انتصاراته وصموده عنواناً وقدوةً للدول الأخرى وهي تتّخذ مواقعها الجديدة الاستقلالية في منظومة المواجهة مع القدر الافتراضي الأميركي/ الصهيوني.

ولهذا فإنّ صمود سورية الإعجازي في وجه العدوان الكوني الإجرامي لا بدّ أن يشكل مع حلفه المقاوم الأساس الراسخ لمنظومة الأمم الإنسانية المستقلة والتي لا بدّ بعد تجسيد الانتصار السوري على الأرض أن ترسّخ هذه المنظومة الإنسانية جامعتها العالمية لنصرة الشعوب وحصانة قراراتها المستقلة وعلى كافة المستويات.

عـاش الحلف الـسـوري/ الإيـرانـي... عـاش الحلف العربي/ الإيراني،

عاشت سورية مهد الإنسانية وكعبة العروبة وقلعة الكرامة.

*** عربي سوري من فلسطين**